

التاريخ في سيرة أبطاله

## ابراهيم لنكولن

هزيمة الأبراج الى عالم المرنبة

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادي ! خذوا معاني العظمة في ليلتها  
الأعلى من سيرة هذا الصامي العظيم ...

- ٢٠ -



وجاء يوم الرحيل وآن لفتي الأحراج أن يؤدي رسالته ...  
آن لابن النجار أن يأخذ بيديه أزمة الحكم في قومه ؛ وتأهب  
ليواجه العاصفة ، وإنه ليراها اليوم عاصفة دونها تلك المواصف  
التي طالما هبت في النابة هوجاء عاتية ، فزعزعت بإسقاط الدوح  
وشمنت كثيفات الألفاف وأفزعت الرجال والدواب ... إنه يراها  
اليوم عاصفة من عمل الانسان لا من عمل الطبيعة ، وما أهول  
ما يفعل بنو الانسان حين ينسون إنسانيتهم قسوة ظ فيهم غرائزهم  
التي دبت فيهم أول ما دبوا على هذه الأرض ...

مول على الرحيل « الرجل القادم من الغرب » كما اعتاد أن يسميه  
أهل العاصمة وغيرهم من أهل المدن الشرقية السابقة في المدينة ...

وتقدم الريان ليقود السفينة ودوى الأنواء في مسميه  
ذهب مساء اليوم السالف ليوم رحيله إلى مقر عمله في المحامة  
فجمع طائفة من الكتب والأوراق فلفها وربطها بيده وحملها معه  
ثم أوصى أن تظل الرقعة التي تحمل اسمه واسم زميله هرنذن حيث  
هي على الباب قائلاً : إنه عائد — إن مد في أجله بصد اقتضاء  
مدته في الرئاسة — إلى عمله في المحامة كأن لم يكن هناك شيء  
وكان قد حزم متاعه وأعد كل شيء ليكون على أهبة إذا  
تنفس الصبح ، وأعد فيها أعد خطاباً يذيعه في الناس ساعة  
الاحتفال بتسلمه مقاليد الأمور ، ولقد احتفل لهذا الخطاب  
وكانت معانيه محبسة في نفسه زمناً تهدير كالسيل وتجمش وتجتمع  
وأسفر الصبح فركب وجماعة من أصدقائه مركبة أقلهم إلى  
المحطة وقد تلاق هناك نفر من أهل المدينة جاءوا يحميونه فأراهم  
حتى وقف على سلم المربة وأطل عليهم وقد شحب لونه وتندت  
عيناه فقال : « أي أصدقائي ؛ لن يستطيع أي رجل لم يكن في  
مثل موقعي هذا أن يدرك ما يخالجي من الحزن لدى هذا الرحيل .  
إني مدين بكل شيء لهذا البلد ولكرم أهله ؛ ولقد لبثت فيه من  
عمرى ربع قرن وتدرجت فيه من شباب إلى رجل مسن ...  
هنا ولد أبنائي وهنا دفن واحد منهم ؛ وهانذا أرحل ولست  
أدرى ما إذا كنت عائداً إليكم بعد اليوم ... أرحل وأماي عمل  
هو أعظم من ذلك الذي ألقى على كاهل وشنجلتون ، ولا نجاح لي  
ما لم أصب معونة الله الذي كان معه أبداً . . . ولئن ظفرت بهذه  
المعونة فلن أخيب . فلنأمل في حسن المنقلب غلصين واثقين في الله  
الذي هو معي ومعكم والذي يكون منه الخير في كل مكان ، وإني  
حين أكلكم إلى عنايته كما أمل أن تكونوا إليها في صلواتكم  
أقرئكم وداعاً حاراً ... »

وانطلق به القطار وقطرات المطر تنزل على رؤوسهم الحاسرة  
كأنها دموع منصبة من السماء ، ولكم التقت ساعتئذ تلك  
القطرات بما قاض من المآقي ... ورحل أبراهام ليمود بعد جهاد  
شديد ومراس فاذا هو شهيد تمزق الجراح جنته

وقضى في رحيله إلى العاصمة اثني عشر يوماً . وعلم الناس  
بهذا الرحيل ، فكانوا يلتقونه في المدن التي يمر بها مرشحين ،  
وقد تلاقت جموعهم على نحو لم تشهد البلاد من قبل ، فاق في الناس

إلا من مله حب الاستطلاع ؛ وكثير منهم كانت تدفعهم المحبة إلى هذا اللقاء

وكان قد عقد النية أن يظل صامتاً إلا ما يكون من تلمحة يرد بها على ما كان يلقاه من تحيات ؛ ولكن إصرار الناس في كل مكان على أن يسمعوا حديثه جملة بتجمل مما اعتزم ؛ ثم إنه — دون أن يعرف التظاهر أو التورور — رأى أن هذه كانت آخر فرصة يتحدث فيها إلى عامة الناس، وهم الذين يبول عليهم ويطعم أن يتخذ منهم ظهيراً فيما هو مقدم عليه من كفاح

وكانت له في خطبه أثناء ذلك المسير خطة رشيدة ؛ فقليل ما كان يرم أمراً أو يقطع في المسائل القائمة برأى ؛ وإنما كان يشرح الأمور حتى تستبين، ثم يتساءل عن أوجه الصواب تاركا الناس يتدبرون حتى تأتيم البيئة ، تتمثل ذلك في مثل قوله في أنديا نابولس : « أى مواطني، لست بغير أمراً، إنما أنا ألقى عليكم أسئلة لتتدبروها ... »

ولقد تكلم في هذه المدينة فأشار إلى ما كان يجري على الألسن يومئذ حول حق الاتحاد في رد الولايات الخارجة عليه بالقوة ؛ واقعد أنصار الجنوب ذلك العمل عدواناً ؛ فتساءل الرئيس هل يكون في الأمر عدوان إذا لجأت حكومة الاتحاد إلى المحافظة على ما تملك هناك من عقار، أو إذا حافظت على سبل مواصلاتها وحرصت على جياة المال المقرر على البضائع الواردة ؟

واستقبل إبراهيم في سنسنانى استقبالاً لم تر هذه المدينة لأحد من قبل نظيراً له ؛ وتزاحم الناس عليه يريدون رؤيته ويأتون المدينة في مثل فرحة العيد ، ففيها الأنوار الوضاعة والأناشيد الصداحة والجموع الففيرة المتبشرة، وفيها ما هو أعلى من سبات العيد هذه ألا وهو الحب الصادق تفيض به القلوب

وصر بمحدود ككتوكي وهي ولاية من ولايات السبيد تشد فيها الدعوة إلى الانسحاب من الاتحاد فقال بوجه الكلام إلى أهلها مشيراً إلى ما اعتاد أن يخاطب به أهل الجنوب من قبل : « أى مواطني أهل ككتوكي ، هل لي أن أدعوكم بمثل ما أدعو ؟ إنني في موقفي الجديد ، لا أجد حادثاً ولا أحس ميلاً يدعوني أن أغير كلمة من هذا ، فإذا لم تنته الأمور إلى الخير فتقوا أن الخطأ في ذلك لا يكون خطئي ... »

وفي بتسبرج أفصح عن سروره أن كان استقباله هناك استقبالا شعبياً لا أثر للحزبية فيه ثم قال : « إذا لم تجتمع كلتنا الآن لننجي سفينة الاتحاد القديمة الطيبة في رحلتها هذه ، فلن يكون ثمت من فرصة بعدها لقيادتها إلى رحلة غيرها »

وفي محطة من المحطات الصغيرة وقف لنكولن بعد أن قرت حماسة المستقبلين فقال إنه يذكر أن خطاباً جاءه من فتاة هذه بلدتها تسأله فيه أن يطلق لحيته، ولقد فعل كما أشارت فهو ذو لحية اليوم كما يراه الناس ، ثم عبر عن رغبته في رؤية تلك الفتاة إن كانت حاضرة ، فبرزت من الجموع تلك الفتاة ومشت على استحياء حتى وصلت إلى الرئيس ، فقبلها قبلته على جبينها ، والناس بذلك معجبون فرحون !

وفي ألبني عاصمة ولاية نيويورك العظيمة كانت حفاوة الناس به شديدة ؛ وكذلك كان شأنه في مدينة نيويورك التي سبق أن زارها لأول مرة من قبل ليخطب الناس فأصاب من النجاح ما سلفت الإشارة إليه

ووقف في ترنتن على مقربة من ميادين القتال التي سالت فيها دماء الثورة غداة حرب الاستقلال ، فأخذ جلال الموقف وهزته روعة الكرى فجري لسانه بما اختلاج في نفسه قال « إنني لأرجو أن تسامحوني إذا ذكرت في هذه المناسبة أنني في أيام طفولتي وفي مستهل عهدي بالقراءة قد تناولت كتاباً صغيراً يدعى حياة وشنجلتون تأليف ويمز ؛ وإنني أتذكر كل ما جاء فيه عن ميادين القتال وعن مواقف النضال من أجل الحريات في هذه البلاد ، ولكن ما من حادثة تركت في نفسي من أثر مثل ما تركه موقف النضال هنا في ترنتن نيوجيرسي » ... وبعد أن أشار إلى بعض الحوادث قال ... « وإنني لأذكر الآن أنني فكرت يومئذ ولما أزل غلاماً صغيراً أنه لا بد أن يكون أمراً غير عادي ذلك الذي كافح من أجله هؤلاء الناس ؛ وإنني لأحس رغبة ملحة قوية أن هذا الذي كافحوا من أجله وشيئاً آخر هو أعظم من الاستقلال القومي : شيئاً ينطوي على وعد يوعد به الناس جميعاً في هذا العالم في كل ما هو آت من المصور ... أقول إنني شديد التطلع أن أرى الوحدة والدستور وحريات الناس بحيث تصبح أبدية وهي مقرونة بتلك الفكرة الأصلية التي من أجلها قام الكفاح. وسوف

على ذلك منتبهاً مرحباً كما وافق أن يخطب الناس مساء ذلك اليوم في مدينة هرسبرج وكانت تقع غير بعيد من فيلادلفيا ... وخشى أصحاب أبراهام أن يقتك به المجرمون في زحمة الناس في ذلك اليوم المشهود في أي من المدينيتين وأشاروا عليه أن يقتصد في الاتصال بالناس فيفوت على النادرين قصدهم، ولكنه أبي إلا أن يني بوعده ولو كان في ذلك هلاكه ...

ورفع أبراهام العلم في فيلادلفيا وكان في ذلك موفقاً، فانه سعد في ثبات إلى حيث ينتصب العمود الذي يثبت فيه العلم فشد الحبل فانبطح العلم ورف، وخفق الناس واستبشروا وهم ساعثون جوع خلفها جوع إلى آخر ما يذهب فيهم البصر ... وكلامهم يحميون الرئيس في حساسة وغبطة

وخطب في القاعة التاريخية فأفصح عن شيء من سياسته على خلاف ما جرى عليه في خطبه السابقة؛ قال: «كثيراً ما سألت نفسي ما ذلك المبدأ أو ما تلك الفكرة التي حفظت الاتحاد هذا الزمن الطويل؛ إنها لم تكن مجرد انفصال المستعمرات عن الأرض الأصلية، ولكنها كانت تلك الماطقة التي منحت الحرية لهذه الأمة فحسب، بل للناس جميعاً في كل عصر مقبل كما أرجو؛ إنها كانت تلك التي بشرت أنه متى حان الوقت المناسب رفع العباء عن كواهل الناس جميعاً ومنح كل امرئ فرصة على قدر ما يمنح أخوه ... تلك هي الماطقة التي انطوي عليها إعلان الاستقلال. والآن أسألكم يا أصدقائي هل يتسنى خلاص هذه البلاد على هذا الأساس؟ ... إذا أمكن ذلك فإني إن استطعت أن أساعد على خلاصها أعد نفسي من أسعد الناس في هذا العالم. أما إن كان من المستحيل خلاصها إلا أن يضحي هذا المبدأ، فإني أفضل أن أغتال في هذا المكان على أن أضحي به. والآن أرى من شواهد الحال القائمة أنه ليس ثمة من ضرورة إلى سفك الدماء والحرب. ليست ثمة ضرورة إليها؛ وإني لا أميل إلى أنجاه كمذا؛ وأضيف إلى ذلك أنه لن تقوم حرب إلا إذا أجبرت الحكومة عليها؛ ولن تلجأ الحكومة إلى القوة إلا إذا أشر في وجهها سلاح القوة ... أي أصدقائي؛ هذه كلمات جاءت على غير ترتيب سابق ألبته؛ فإنا لم أكن أتوقع قبل وصولي أن أدعى إلى الكلام هنا؛ لم أكن أحسب إلا أني سأرفع العلم فحسب؛ وعلى ذلك

أكون جد سعيد إذا أصبحت الآلة المتواضعة في يد القوى الملي وأيدي هؤلاء الذين يكادون أن يكونوا شعبة المصطفى للعمل على أن يدوم ذلك الذي انبثت من أجله ذلك النضال العظيم»

وكان الكتاب الذي يشير إليه لنكولن في هذه الذكرى هو بينه ذلك الكتاب الذي أعاده إياه أحد معارفه والذي بلكته قطرات المطر فأصابته ببعض المطب، وتركك الصبي الفتي في حال شديدة من النهم حتى لقد سار يحمله إلى صاحبه وهو شديد الحيرة، فلما جاءه عرض عليه أن يعمل عنده بما يساوي ثمنه ... ذلك هو الكتاب الذي قرأ فيه النجار النلام حياة وشنجطون العظيم، ولم يكن يدور بخلافه أنه سيجلس يوماً حيث كان يجلس وشنجطون ويسدى إلى بني قومه وإلى الإنسانية جميعاً من صنيعه ما لو شهد ذلك البطل الكبير لطمع أن يكون ما تقدم يدها فوق ما قدمت

واستأنف الرئيس لنكولن ومن معه سيرهم إلى العاصمة حتى وصلوا فيلادلفيا؛ وهناك علم أن فريقاً من بني جنسه باتمرون به ليقنوه ... سمع إبراهيم أن أمامه الخطر يوشك أن يحدق به؛ وما كان إبراهيم بدداً من المظاء، فكهم من أمائل خلوا من قبله لاقوا مثلاً يلاق اليوم من عنت، ودر لم مثلاً يدبره، فاهنوا ولا انصرفوا عن وجههم حتى أدركوا الناية أو أدركهم اللوت ...

وارتاب لنكولن أول الأمر، فإ كان يظن أن أحداً تحده نفسه بإتيان هذا العمل، ولكن جاءه رسول من عند صديقه سيوارد ينبئ أن قائد الجيش حده أن هناك مكيدة تدبر له وأن عليه أن يحذر حتى لا يكون ضحية للناشرين ... فلما سمع لنكولن هذا لم يمد يداً وبات على حذر وإن لم تأخذه خيفة

وكانت لفيلادلفيا وهي المدينة التي كتب الثوار فيها وثيقة الاستقلال وصاحوا صيحة الحرية منزلة عظيمة في نفسه وفي نفس كل أمريكي من أنصار الحرية، وكان أبراهام قد وافق أن يخطب الناس في تلك القاعة التاريخية التي ولدت في ساحاتها الحرية، وكانما تواقت الذكريات لتزيد في جلال الموقف فلقد تصادف أن كان ذلك اليوم هو عيد ميلاد الزعيم وشنجطون؛ ورغب الناس أن يرفع العلم على رأس القاعة الزعيم لنكولن ... ووافق لنكولن

فربما كانت كلتي هذه خلأاً من الحرص ولكني لم أقل إلا ما أريد  
أنت أعيش به وما أريد — إذا كانت تلك مشيئة الله — أن  
أموت به ... »

وذهب لتكولن في المساء إلى هرمسبرج وخطب الناس كما  
وعد ؛ وكانت بلنيمور هي المدينة التي اعترم المجرمون أن يقتلوه  
فيها وهي في طريقه إلى العاصمة ؛ فماد لتكولن إلى فيلادلفيا  
قبل الموعد الضروب ، وركب ومن معه قطاراً عادياً كان قد  
استبقى بناء على إشارة قادمة ليحمل «طرذاً» هاماً إلى وشنجلتون  
وترك لتكولن القطار الخاص الذي كان معداً لسفره ، فريلنيمور  
قبل الموعد المروف فقوت بذلك على الكاثين كيدم فكانوا  
هم المكيدن ...

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي وصل (الرجل  
القادم من الغرب) ومن معه إلى وشنجلتون ، فدخل المدينة  
على حين غفلة من أهلها ؛ اللهم خلا سيوارد ورجل آخر كانا على  
علم بمقدمه فلقياه ... وركب لتكولن إلى فندق لينتظر بضعة أيام  
حتى يحتفل بتسليمه أزمة الحكم ... دخل الزعيم لتكولن عاصمة  
البلاد في مثل تلك الساعة المبكرة وفي مثل تلك الحال التواضعة  
ليجلس في كرسى الرئاسة الذي جلس فيه من قبل وشنجلتون ،  
دخل ليحمل العبء وليبدأ في حياته مرحلة من الجهاد والجلاد  
دونها كل ما سلف من جهاد وجلاد ...

الطيف

« يتبع »

هذه دارى وهذا وطنى

ولكن أين أجباني ؟ !

( بقية المنشور على صفحة ١٣٢٢ )

لك خلاص من ظلماتك ، فأين الخلاص من ظلماتي ؟  
ستمضى لشأنك وتركني يا ليل  
إن الظلمات تقتل شبابي وتحبي شبابك  
إن الظلمات تصيرك أقوى وأعنف ، وتصيرني أرق وألطف ،  
والرقة والطف من بواكير الفناء  
أيها الليل !

لقد عرفت قسوتك في بلاد كثيرة من الشرق والغرب ،  
وما كنت أعرف أنك أفسى ما تكون في داري وفي وطني  
أما بعد فأنا أعترف أن قلبي يستحق التأديب  
كنت أصم أذني عن يسألون عني في باريس وفي بنفاد  
لأفرغ لاسمعه الواجب ، فليتنى أجبت الدعوة في باريس وفي  
بنفاد لآخذ ذخيرتي من الحب والعطف !  
ليتنى صنعت وصنعت ، ولكن هيهات فقد فأت ما فات !  
أيها الليل في مصر الجديدة  
أنا على كل حال رفيقك وأخوك  
وستمضي الأعوام والدهور ، ولا تمرر أصدق مني يا ليل

سيد كرنى الناسون يوم تشوكمهم  
شمال من بعض الخلائق سود  
سيد كرنى الناسون حين ترؤعهم  
صنائع من ذكرى هواي شهود  
فوالله ما أسلمت عهدى لمدرق  
ولا شاب نفسي في الغرام جحود  
ولا شهد الناسون مني جناية  
على الحب إلا أنت يقال شهيد  
زكى مبارك

المصطفى  
كتب على مصر وشيخ  
لكن أسان يمشك الحصر على  
نشرت مجلدات في  
الأمم المتحدة  
جاءهم يومين من يد ٢٠٠٥